الاستيلاء على المدينة

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٧ هـ . : إن العساكر المصرية ، بعد استيلائهم على وادي الصفراء وبلدان بوادي حرب (ساروا قاصدين المدينة النبوية ، وسار معهم بوادي حرب .

فنزلوا على المدينة في منتصف شوال ، وحصروها أشد الحصار ، ونصبوا عليها المدافع والقنابر الكبار ، وهدموا ناحية قلعة البلد وحفروا عليها السراديب وثوروا فيها البارود ، وكان فيها عدد كثير من جميع النواحي جعلهم فيها سعود وقت قفوله من الحج ، نحو سبعة آلاف رجل ، لكنهم ابتلوا بالأمراض المؤلمة .

ثم إن العساكر المصرية كادوهم بكل كيد ، وسدُّوا عنهم المياه الداخلة في وسط المدينة ، وحفروا سرداباً تحت سور قلعة المدينة ، وملؤوه بالبارود وأشعلوا فيه النار ، فانهدم السور فقاتلهم من كان فيها قتالاً شديداً .

ثم إن أهل المدينة فتحوا للترك باب البلد ، فلم يدرِ المرابطة إلا والرمي عليهم من الترك داخل البلد ، وذلك لتسع بقينَ من ذي القعدة ، فانحاز المرابطة وجنود المسلمين إلى القلعة فاحتصروا فيها وكانت ضيقة عليهم من كثرتهم وصار فيها خلق كثير يرتكم بعضهم على بعض ، ونصب الترك عليهم القنابر والمدافع ، فكانت القنبرة إذا وقعت وسط القلعة أهلكت عدداً من الرجال ، فكثر فيها المرضى والجرحى ، فطلبوا المصالحة بعد أيام ، فأنزلوهم منها بالأمان .

وهلك في هذه الوقعة من المسلمين – بين القتل والوباء والهلاك في البر بعد ما خرجوا من المدينة وقبل أن ينزل عليهم الترك – نحو أربعة آلاف رجل من عسير وأهل بيشة والحجاز وأهل الجنوب وأهل نجد .

وظهر باقيهم إلى أوطانهم .

وأمسك الترك «حسن قلعي» وعذبوه بأنواع العذاب ، وبعثوه إلى مصر .) .

ويشير ابن بشر إلى أن الإمام سعود بلغه سقوط المدينة ، قبل قدومه مكة للحج في ذلك العام .

رواية ابن سند :

يقول ابن سند ان الوهابيين لما علموا بوصول العساكر المصريين الجدد إلى ينبع وعرفوا عزمهم على المسير إلى المدينة ، أمروا أهالي المدينة « الجوانية » بإخلائها ، فأخلوها ، ولم يلقَ هؤلاء النازحون عن دورهم حرجاً لأن أهل « المنـاخة » رحّبوا بهم وأدخلوهم بيوتهم ، ولكن الغلاء اشتدّ على الناس لأن الوهابيين أخذوا (جميع الأقوات وحصروها عندهم في المدينة الجوانية) .

ولما وصل « صالح آغا الكاشف » ، على رأس ثلاثمائة فـارس ، ليستكشف بأمر طوسون مواقع الوهابيين ، إلى ذي الحليفة – المسماة الآن بأبيار علي – علم بذلك أهل المدينة ، فأرسلوا اليه رسولاً (أن يقدم عليهم ليلاً ، وهم معه ، وأظهروا له بغض الوهابيين وعداوتهم ، ودلّوه على عوراتهم) ، ولكن الآغا لم يطمئن إلى هذا الكلام وظنه مكيدة ، ثم توالت عليه وفود أهل المدينـة ، فاطمأن قلبه .

ويزعم ابن سند ان فتح المدينـة تمّ على أيدي هؤلاء الفرسان الثلاثمائة الذين كانوا مع صالح آغا ، فقد دخل الآغا بفرسانه المدينة ليلاً حتى لا يراه الوهابيون الذين في القلعة ، وبذلك نجا من رميهم له بالمدافع التي تصل قنابلها إلى ما بعـد العقيق ، فتلقاه أهل المدينـة بالترحيب ، وانضموا اليه (وكان في أهل المدينة رجال معروفون بالشجاعة ، فصار بمجموع عسكره مع أهل المدينـة نحو سبعمائة رام ، وأهل المدينة ، مع شجاعتهم ، أدرى بمخابىء بلدهم وطرقها ..

وقد تظاهر أهل المدينة بالعداوة للوهابيين – وصاروا يبيعون ويشترون في سوق لهم مخصوص في العنبرية ولا يمرّون إلا من الأزقة والمنعطفات – ومن لطف الله بأهل المدينة ان الوهابيين لا يحسنون ضرب المدافع على الوجه الأتم ، وإلا لأهلكوا أهل المدينة ..

ثم إن أهل المدينة اتفق رأيهم مع صالح آغا الكاشف على أن يحفروا لغماً تحت الأرض فحفروه عند حوش النخاولة .. فلما انهدم السور من هناك كبّر أهل المدينة مع عسكر الكاشف وهجموا على داخل البلدة ، واستمر القتل بين الطرفين .. وصار أهل المدينة يهجمون على الوهابية .. من أعلى البيوت وينقبون عليهم السقوف والحيطان .. إلى أن حصروهم في القلعة ، وقد أنزل الله الخوف والجبن على الوهابيين في ذلك اليوم، مع انهم اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، وأما في هذه المعركة فكأن الله ربط على أيديهم .. فطلبوا الأمان لأنفسهم ، ونجوا إلى نجد ، وتركوا القلعة مشحونة بأموالهم ..

وصار الكاشف يتعجب من قوة إقدام أهل المدينة ومن شدة هجومهم وتسلقهم على الوهابيين بطرق مثل البهلوانية ، إلى أن صار المدني يطلع على الوهابيين من وسط البئر تكون مشتركة بين بيتين فيدخل المدني من البيت الآخر وينزل في البئر ويصعد على الوهابيين من داخل البئر فينهزمون ويظنونه جنياً .

ولكن استشهد كثير من أهل المدينة ..

وكل هذا وأحمد طوسون ليس له علم بتلك المحاربات والمحاصرة والألغام، ولا كان يتصور العقل ان سبعمائة رجل يحاربون عشرة آلاف داخل الحصون والقلاع ويخرجونهم من حصونهم ..

ثم بعد ذلك قدم أحمد طوسون باشا بجيشه فخيّم عرضيه خارج المدينة .)

رواية محمد البسام :

ويقول محمد البسام ، مؤلف «الدرر المفاخر»: إن محمد علي لم يغلب الوهابيين لقوته وضعفهم (لا والله ما تغلب عليهم صاحب مصر عن ضعف منهم او جبن ، بل خيانة من العربان ورضى من ساكني البلدان ..)

ويصف استيلاء طوسون على المدينة فيقول انه حاصر حماة المدينة الوهابيين ونازلهم مدة شهر او أقل ، ولما دعاهم إلى التسليم فلم يقبلوا برئت ذمته منهم ، فصبّ عليهم البارود صباً ثم هجم عليهم العسكر (فاحتصروا في القلعة الصغيرة وأعطاهم الأمـــان فخرجوا ، فإذا هم « ٥٠٠ » خمسمائة .. وكانوا من قبل اثني عشر ألفاً ..

وأعطاهم الوزير « طوسون » إبلاً وزاداً وماء وأكرمهم ، وتعجب الوهابي لكرمه ووفائه ..

وبقي مسعود بن مضيان في قصره محتصراً ، حائر الأفكار ، فدعوه بلا أمان ، وطلب الأمان فامتنع الوزير ، وقـام ابراهيم بونابرت ، وكتب له على لسان الوزير : إنك آمن . فأقبل ، وأكرمه الوزير إكراماً مفرطاً ، فلما انتهى ثلاثة أيام ، كل يوم أعظم إكراماً ممـا قبله ، جاء نهار رابـع أوثقوا قيوده وناقشوه في أفعاله ، فما أجاب بحسنى ولا سيئة لمعرفته بالهلاك .

ومن الأسرى : حسن القلعي ، ضابط الحجرة الشريفة .)

رواية بركهارت :

يقول بركهارت أن أحمد بونابرت ، بعد قتال يسير مع حامية المدينة ، دخل ظاهرها واضطر الوهابيين إلى الانحصار في المدينة « الجوانية » ،التي كانوا أخلوها من السكان ، وكان حول المدينة الجوانية سور ، وفيها قصر حصين .

وقد انضم أهل المدينة إلى المصريين ، ولم يكن مع المصريين مدافع ثقيـــلة تستطيـع تدمير السور والحصن ، فلجأوا إلى الألغام .. وأمكنهم بذلك تدمير قسم من السور ، فاستطاع العسكر الأرناؤوط الدخول من خلال هذا القسم المنهار إلى المدينة الجوانية .. وفوجيء الوهابيون بذلك وكانوا مجتمعين في المسجد لصلاة الظهر فأسرعوا إلى الحصن .. وقتل منهم في طريقهم إلى الحصن نحو ألف رجل ، ووصل إلى الحصن ألف وخمسمائة ..

وكان (طوماس كيث) — إبراهيم آغا — أول من دخل المدينة . وقد

عيّنه طوسون ، فيما بعد ، حاكماً على المدينة المنورة !.. وهذا عمل مستهجن جداً [1] ..

بقي الوهابيون محاصرين في حصنهم ثلاثة أسابيع ، فلما نفدت مؤنهم طلبوا الأمان ، فأمنهم أحمد بونابرت على أنفسهم ومتاعهم ، ووعدهم أن يعطيهم الركائب التي طلبوها لتوصلهم إلى أوطانهم ، ولكن رجال الحامية الوهابية لم يجدوا عند نزولهم من حصنهم سوى خمسين بعيراً .. بدلاً من الثلاثمائة بعير التي وعدوا بها فتخففوا من متاعهم ورضوا بما وجدوه ..

ولكن الترك تتبعوهم في الطريق وقتلوا منهم ونهبوا ..

وكان أكثر هؤلاء من عسير .

أما مسعود بن مضيان رئيس بني حرب فكان مع عياله في حصن له في بستان خارج المدينة ، فأمنوه ، لكنهم ما لبثوا أن دمروا داره وقتلوا أولاده وأتباعه ثم وضعوه في الحديد وأرسلوه إلى ينبع .. وقد استطاع الهرب خلال الرحلة ، ولكن رجالاً من عشيرته أسلموه إلى المصريين ، لقاء دنانير أخذوها منهم .

وأسر المصريون كذلك حسن القلعي ، الذي كان حاكم المدينة ، قبل استيلاء الوهابيين عليها .

إن سلوك المصريين في المدينة — وهو يطلق عليهم اسم الترك — كان مثيراً ومخجلاً وشوه سمعتهم كثيراً عند العرب ، فأصبح اسم التركي في الحجاز محتقراً.

ولقد قام أحمد بونابرت بعمل همجي فظيع ، إذ جمع جماجم الوهابيين القتلى وصنع منها برجاً ، ونصبه في الطريق إلى ينبع ، وأقام حرساً لحمايته ، ولكن العرب اعتدوا على هذا البرج غير مرة. ولما زار بركهارت المدينة عام ١٨١٥ م. لم يكن قد بقي من البرج إلا شيء قليل جداً ..

أفراح القاهرة .. واستانبول :

يقول الجبرتي ان هجانة وصلوا من الحجاز الى السويس في ١٠ ذي الحجة ،

---

(١) أنظر ترجمة طوماس كيث في الصفحات السابقة ، في مبحث معركة الصفراء .

ومعهم رسول يحمل مفاتيح المدينة المنورة.. فحصل للباشا سرور عظيم وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد .. ونودي على الناس بتزيين الأسواق ثلاث ليال وكتبت البشائر الى جميع النواحي ..

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا ان السلطان ، حين بلغه فتح المدينة ، أمر بتوزيع الألقاب والرتب على عدد كبير من الأشخاص استبشاراً بهذا الفتح العظيم.

ولما وصل رسول محمد علي الذي يحمل الى السلطان مفاتيح المدينة — ومعه أيضاً ابن مضيان — وذلك يوم الجمعة ٢٦ محرم ١٢٢٨ هـ . أمر السلطان باجراء احتفال ديني ورسمي كبير في جامع أبي أيوب الأنصاري تسلم خلاله المفاتيح من رسول محمد علي ليحفظها في خزانة قصره وأعطى الرسول مالاً كثيراً .. وأما ابن مضيان فقد أمر بقطع رأسه .